مغامرات الأفكار لوايتهد

بقلم
الدكتور محمود زيدان
مدرس الفلسفة بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية

حياة المؤلف وكتبه

إن أردت أن تتحدث عن عمالقة الفلسفة الإنجليز فى القرن العشرين فلا بد وأن يكون ألفرد نورث وايتهد فى المقدمة . يذكر له بوجه خاص كشفه الجديد فى الرياضيات والمنطق ، وبناؤه مذهباً ميتافيزيقياً أقيم على أحدث مكتشفات علم الطبيعة . يعد كتاب « المبادئ الرياضية » الذى ألفه وايتهد بالاشتراك مع برتراند رسل إنجيل المنطق الرياضى الحديث لما احتوى من نظريات جديدة فى أسس الرياضيات ، وصلتها بمبادئ المنطق وتصوراته ، ووضع نظريات منطقية جديدة بحيث وقف منافساً لكتب أرسطو المنطقية . قامت ولا تزال تقوم محاولات لإنزال هذا الكتاب عن عرشه ، لكنها من قبيل محاولة برنارد شو لإنزال شكسبير عن عرشه ؛ يؤثر عن « شو » قوله « إن شكسبير أطول منى قامة ولكنى أقف على كتفيه » ؛ فاذا صدقنا « شو » فى حديثه عن نفسه ولم نر أنه مجرد ادعاء ، فان وقوفه على كتفى شكسبير لا يقلل من عظمة الثانى بل يزيده قيمة . قل مثل ذلك فى قيمة كتاب « المبادئ » بالرغم من محاولات نقده ومهاجمته .

كان وايتهد إلى جانب براعته فى الرياضة والمنطق فيلسوفاً موسوعياً على طريقة ليبنتز . كان علينا قبل وايتهد أن نختار أحد اتجاهين فلسفيين : إما اتجاه هيوم وإما اتجاه هيجل ، وكان اختيار أحدهما يستبعد اختيار الآخر ، ولم يتمكن أحد من التوفيق بينهما — حتى رسل واجه هذا الموقف واختار هيوم — وأعد نفسه للثورة على مثالية هيجل ومدرسته يعاونه زميله جورج مور ، أو كان يعاون هو ذلك الزميل . كانت أصالة وايتهد تأليف مذهب فلسفى يوفق بين الاتجاهين المتقابلين : لم يعجبه هيوم لقصور مذهبه عن بلوغ النظرة الكلية إلى العالم — تلك النظرة التى أقنعه بها هيجل ، ولكن لم يعجبه هيجل فى مثاليته التى تضمنت ذوبان فردية الأجزاء فى الكل ؛ جاء وايتهد ليضع مذهباً ينطوى على النظر إلى العالم والكون نظرتنا إلى كائن عضوى واحد : لكل عضو فرديته واستقلاله ، ولكن طبيعة كل عضو هى تأديته لوظيفته ، وتأديته لوظيفته مرتبط بطبيعة باقى الأعضاء وتأديتها وظائفها ، وقيمة العضو فى المساهمة فى بقاء ذلك الكائن الحى الذى يكون ذلك العضو عضواً فيه .

كان وايتهد بالإضافة إلى أصالته فى الرياضة والمنطق والفلسفة عالماً طبيعياً أصيلا ؛ أخذت بلبه الكشوف الحديثة فى علم الطبيعة ونظريات المغنطيسية الكهربية والنسبية والكوانتم بوجه خاص ، فاستفاد منها فى تأليفه نظرية كوزمولوجيه لها قيمتها الكبرى .

ولد وايتهد فى عام ١٨٦١ وتخرج من كلية ترنتى بجامعة كمبردج ، وعين مدرساً للرياضة التطبيقية والميكانيكا فى هذه الكلية فيما بين ١٩١١ و ١٩١٤ ، ثم مدرساً لهاتين المادتين فى جامعة لندن فأستاذاً بها فيما بين ١٩١٤ و ١٩٣٨ ، وقد عين فى تلك السنة أستاذاً للفلسفة بجامعة هارفارد ، وظل بها حتى مات فى عام ١٩٤٧ . وتقديراً لجهوده ، منحته جامعات مختلفة الدرجات الممتازة : إذ منحته جامعة مانشستر الدكتوراه فى العلوم ، وجامعات هارفارد وييل ومونتريال الدكتوراه الفخرية فى العلوم ، وجامعات سانت اندروز بسكتلند ووسكونش بالولايات المتحدة الدكتوراه الفخرية فى القانون ؛ بالإضافة إلى زمالته للجمعية الملكية بانجلترا وللأكاديمية البريطانية .

وقد كتب وايتهد الكتب الاتية :

مقالة فى الجبر الشامل (١٨٩٨)
A Treatise Of Universal Algebra

بديهيات الهندسة (١٩٠٦)
Axioms of Geometry

الهندسة الوصفية (١٩٠٧)
Descriptive Geometry

المبادئ الرياضية من ثلاثة أجزاء بالاشتراك مع برتراند رسل (١٩١٠ — ١٩١٣)
Principia Mathematica

مبادئ المعرفة الطبيعية (١٩١٩)
Principles Of Natural Knowledge

تصور الطبيعة (١٩٢٠)
The Concept Of Nature

مبدأ النسبية (١٩٢٢)
The Principle Of Relativity

العلم والعالم الحديث (١٩٢٦)
Science And The Modern World

الدين يتكون (١٩٢٧)
Religion In The Making

الرمزية (١٩٢٨)
Symbolism

العملية الصاعدة والوجود (١٩٢٩)
Process And Reality

أهداف التربية ومقالات أخر (١٩٢٩)
The Aims Of Education And Other Essays

وظيفة العقل (١٩٢٩)
The Function Of Reason

مغامرات الأفكار (١٩٣٣)
Adventures Of Ideas

أنحاء الفكر (١٩٣٨)
Modes Of Thought

مغامرات الأفكار

نعرض هنا لهذا الكتاب فقط لوايتهد ، وهو لا يهتم فى هذا الكتاب بعرض نظرياته الفلسفية أو الرياضية أو العلمية والدفاع عنها ، وإنما ينظر نظرة سريعة إلى الحضارة الإنسانية حيث يبين أن عماد الحضارة إشراق أفكار جديدة ، وأن الحضارة تسود حيث تؤدى تلك الأفكار وظيفتها فى التأثير على حياة الفرد والجماعة . ويذكر فى مقدمته لهذا الكتاب أنه وضع كتباً ثلاثة يكمل بعضها بعضاً ، يوسع فى إحداها ما يوجز فى الآخر — هى العلم والعالم الحديث ، والعملية الصاعدة والوجود ، ومغامرات الأفكار : يوسع فى الأول موقفه من العلوم وفى الثانى موقفه من الفلسفة النظرية وفى الثالث موقفه من الحضارة الإنسانية وكيف تؤثر الأفكار العلمية والفلسفية والسياسية والاجتماعية فى دفع الأفراد نحو حياة أفضل ؛ ومن ثم يهتم هذا

الكتاب الأخير بتصور الحضارة ودور الأفكار الجديدة فى رفعة الأفراد ودور الأفراد فى خلق عصر متحضر أكثر من اهتمامه بعرض نظرياته الفلسفية أو العلمية — فهذه الأخيرة يوجزها فى هذا الكتاب إيجازاً :

والكتاب أربعة أبواب ، وكل باب يشمل فصولا : الباب الأول وهو « الباب الاجتماعى » وفصوله ستة هى : « مقدمة » ، « الروح الإنسانية » ، « المثل الأعلى فى نظر المذهب الإنسانى » Humanitarian Ideal « مظاهر الحرية » ، « من القوة والتسلط إلى الاقناع » ، « توقع نتائج » .

ويسمى وايتهد الباب الثانى « الباب الكوزمولوجى » ونميل إلى ترجمته بباب فلسفة العلوم ، لأن لعبارة « فلسفة العلم » معنيين : تعنى أولا علم المناهج ويتناول هذا العلم منهجى الاستنباط والاستقراء وتطورهما عبر التاريخ ، ويبين فضل الملاحظة والتجربة على الاستدلال الصورى البحت أو فضل الثانى على الأول ، وكيف يكون مشروعاً أن نتمسك بأحدهما ونستبعد الآخر ونحن نبحث فى العلوم التجريبية ، ولا بأس من ملاحظة أن علم المناهج من شأن الفيلسوف لا من شأن العالم بشرط أن يكون ذلك الفيلسوف عالماً . وتعنى « فلسفة العلم » ثانياً دراسة النظريات والكشوف العلمية واستنتاج ما تتضمنه من آراء ومواقف تشكل نظرتنا إلى الأشياء من حولنا وتكوين نظرة شاملة عن الكون . يعنى وايتهد فى الباب الثانى بفلسفة العلوم بالمعنى الأخير وإن كان يذكر رأيه فى مناهج البحث هنا وهناك حين دعت إلى ذلك فرصة . ويشمل الباب العلمى فصولا أربعة هى : « قوانين الطبيعة » ، « فلسفات علمية » Cosmologies ، « العلم والفلسفة » ، « الإصلاح الجديد » . والباب الثالث هو « الباب الفلسفى » وفصوله خمسة هى : « الموضوعات والذوات ، الماضى والحاضر والمستقبل » ، « تجمع الفرص » The Grouping of Occasions ، « الظاهر والحقيقة » ، « منهج فلسفى » . والباب الأخير عنوانه « الحضارة » ، ويشمل خمسة فصول هى « الحق » ، « الجمال » ، « الحق والجمال » ، « المغامرة » ، « السلام » ، ونحن نوجز فيما يلى أهم ما جاء فى تلك الأبواب من أفكار :

الباب الاجتماعى

نقطة منهجية

يبدأ المؤلف بذكر نقطة منهجية بالغة الأهمية تتفق وما يقوله علماء المناهج اليوم حين يتحدثون عن الاستقراء ، وتختلف عما كان سائداً فى مطلع العصر الحديث . كان المحدثون من أمثال فرنسيس بيكون وجون ستوارت مل وأتباعهما يرون أن المنهج السليم فى البحث العلمى يقتضى أن نبدأ بمرحلة ملاحظة الوقائع وإجراء التجارب إن كانت تسمح طبيعة العلم باجراء التجربة ، ثم الانتقال إلى مرحلة وضع فرض يصلح تفسيراً مؤقتاً لتلك الوقائع ، فان أيدت الوقائع المستقبلة ذلك الغرض سميناه قانوناً ، ومن جملة القوانين المتعلقة بمجال معين من مجالات البحث يفسر بعضها بعضاً ويرتبط بعضها ببعض ارتباطاً منطقياً — جملة تلك القوانين نسميها بالنظرية العلمية ، فنقول قانون سقوط الأجسام ونظرية الجاذبية التى تتضمن ذلك القانون وغيره من قوانين الميكانيكا . أما المعاصرون فيعكسون الآية ؛ إذ يرون أن نقطة البداية فى البحث العلمى وضع الفرض لا الملاحظة والتجربة ؛ لا شك أن ذلك الغرض السابق ليس خيالا جامحاً بغير أساس ، وإنما يقوم على تعميمات تجريبية سابقة أو قوانين سبق لنا التسليم بها تسليما كلياً . وبعد الفرض نستخرج نتائج بطريق الاستنباط الصورى ، وبعدئذ نبحث فى تحقيق تلك النتائج تحقيقاً تجريبياً أى نبحث عن وقائع نلاحظها أو نجربها تؤيد أو تدحض تلك النتائج ؛ فثقتنا بنتائج فرضنا يجعل ذلك الفرض ناجحاً

وإلا بدأنا الجولة من جديد بفرض جديد . وبفضل ذلك المنهج فى البحث وصلنا إلى كشوف علم الطبيعة الحديث مثل طبيعة الضوء ونظريات المغنطيسية الكهربية وقوانين الحركة فى عناصر الذرة ونظرية الكوانتم والنظريات النسبية عن المادة والكتلة والطاقة . وما كان يتسنى لنا أن نتوصل إلى تلك الكشوف بالطرق الاستقرائية التى نصحنا بها بيكون ومل . وحجة المعاصرين فى ذلك أنه لا جدوى من الملاحظات العشوائية وأن الملاحظة الموجهة هى الملاحظة المثمرة ، والملاحظة يوجهها فرض سابق أو وجهة نظر سابقة نضعها موضع الاختبار لا أن تكون موضوع اعتقاد .

اعتقد وايتهد بالمنهج الأخير فى البحث وأراد أن يطبقه فى بحثه فى تاريخ الأفكار . حين نستقرئ الأفكار عبر العصور — تلك الأفكار التى أثرت فى الجماعات والأفراد — يجب أن يكون دليلنا فى الاستقراء نظريات سابقة موجهة . ويسوق لنا المؤلف مثلين من الماضى على استخدام هذا المنهج فيذكر هيجل وماكولى Macaulay — يذكر عن الأول أنه حين أراد أن يضع نظريته فى فلسفة السياسة كان لديه افتراض سابق وهو أن الدولة المثلى هى بروسيا الشرقية وقتئذ فوضع نظريته التى تنطوى على أن الدولة المثلى ما تحاكى بروسيا : تأليه الدولة ، ذوبان شخصية الأفراد فى شخصية الدولة وأن فى ذلك تمتعهم بالحرية الحقيقية. الخ.. ويذكر وايتهد عن ماكولاى أنه حين أراد أن يضع نظريته السياسية فى الجيل التالى لهيجل نظر إلى النظام الدستورى الإنجليزى على أنه أكمل نظام للدولة البرلمانية الديمقراطية ، ومن ثم ينبغى على كل دولة أن تحاكى إنجلترا . وهدف وايتهد من هذه النقطة هو أن استقراءه للأفكار التى مرت بها الإنسانية فى سبيل تطورها الاجتماعى والسياسى يوجهه فرض معين ، هو أن حضارة الشرق الأدنى مصدر حضارة أوروبا الحديثة ؛ فاذا أردنا تقييم الحضارة الأوروبية ، علينا أن نرجع إلى حضارة الشرق الأدنى القديمة — حضارة يرجع عهدها إلى آلاف من السنين مضت ؛ ويقصد بالشرق الأدنى مصر والعراق وبلاد العرب وآسيا الصغرى ؛ ويضيف وايتهد الحضارة اليونانية والرومانية إلى الحضارات الشرقية كمصدر للحضارة الغربية .

العبودية والمساواة

من الأفكار الأساسية التى يرى وايتهد أنها أثرت فى تطور المجتمعات الإنسانية فكرة حقوق الفرد وحق الحرية بوجه خاص . يستقرئ المؤلف التاريخ ليدلنا على أن الإنسانية فى عهود غابرة كانت تفترض العبودية عنصراً أساسياً لبناء المجتمع ، ويشرح لنا كيف أن الإنسانية قضت وقتاً طويلا جداً حتى استجابت لأفكار المصلحين المنادين بحق الحرية والمساواة بين الأفراد . ونوجز فيما يلى تاريخ وايتهد لتلك الظاهرة .

يجتمع الأفراد فى جماعة فتنشأ بينهم علاقات — يتبادلون مشاعر الراحة والرضا والاطمئنان أو التعب والبؤس والقلق والخوف ، ويتبادلون الآمال والأمانى ؛ وتنشأ لديهم عادات عقلية تتضمن أولا فهمهم للأشياء من حولهم ، ثم يأتى دور تقييم تلك الأشياء وتقييم سلوكهم تجاه بعضهم بعضاً ، فيبدأ تمييزهم بين الخير والشر ، والصدق والكذب ، والجمال والقبح . كانت هذه العلاقات والعادات فى المراحل الأولى من مراحل التجمعات الإنسانية من الأمور المألوفة ، أى لم يفكر الأفراد ويعاودوا التفكير فيها لمحاولة تحليلها ونقدها للإبقاء على الطيب منها ، وتعديل ما يحتاج إلى تعديل . ولكن فى مرحلة تالية من مراحل الإنسانية أى منذ نحو ثلاثة آلاف من السنين بدأ الأفراد يفكرون فيما يرون ويعملون ويعتقدون . وبدأت تشرق أفكار الواجب والنفس أو الروح والعقل . بدأ الناس يربطون فكرة الواجب بما ترويه الأساطير عما يحبه الآلهة ، وبدأت تزحف فكرة الروح ليفسروا بها كل ما يسبب لهم

حيرة وما يعجزون عن تفسيره ، وتطور الناس فبدأت حاسة النقد . وهذه المرحلة يعتبرها وايتهد الدفعة الأولى لظهور الحضارة والمدنية وانتقال الناس من مرحلة من التقدم إلى مرحلة تعلوها . وجاء مع فكرة العقل واستعداده للنقد تصورات القلق وعدم الرضا بما هو واقع ،والبحث فى نوع من الأفكار والعادات والسلوك والعلاقات أفضل مما درج عليه الأفراد . ويرى المؤلف أن أدق تعبير لإشراق العقل هو ظهور الفكر اليونانى القديم بوجه عام ، وفى محاورات أفلاطون بوجه خاص — نراه ينقد الآلهة التى رسمتها مخيلة الشعراء ، ويحثنا على أن نتصور الله منزهاً عن النقص والشر وتتحقق فيه صورة الجمال الخالد .

ينتقل وايتهد من تلك المقدمة إلى تأريخه لظاهرة العبودية . يقول إننا إذا نظرنا إلى مدنية الشرق الأدنى القديمة ومدنية الإغريق ، نرى عبودية الإنسان لأخيه الإنسان ظاهرة واضحة . « يريد المصريون الطوب للبناء ومن ثم قد أسروا اليهود » . انظر إلى الفرق بين بركليس وكليون ، بين أفلاطون والإسكندر ، بين ماريوس Marius وسـلا Sulla ، بين شيشرون وقيصر — تجد أنهم رغم ما بينهم من فروق يتفقون فى فكرة أساسية هى افتراض أن طائفة من الناس — يظن أنهم أقل مستوى فى الحضارة والثقافة من غيرهم — لا بد وأن توجد لتؤدى خدمات يجب ألا يقوم بها الرجل المتحضر — لا بد من قاعدة من العبيد تؤلف جزءاً أساسياً من البناء الاجتماعى لتقوم القمة المتحضرة . أراد المصريون أن يتفرغوا لشئون الحكم أو الإدارة وأراد اليونان أن يتفرغوا للتأمل فى ظواهر الكون وتأسيس مذاهب فلسفية ، فوجدوا أن من الضرورى أن يسندوا الأعمال اليدوية كالخدمة فى المنازل وأعمال الزراعة والعمارة لمن اعتقدوا أنهم أقل منهم عقلا ومدنية وأكثر منهم قوة بدنية . كان اليونان ملاك عبيد ووصلت الإمبراطورية الرومانية إلى أن الرجل المتحضر هو مالكهم . واختلف الناس فى معاملة عبيدهم فمنهم من كانوا رحماء ومنهم من كانوا قساة غلاظ القلوب — يصف لنا أفلاطون فى « المأدبة » أن أجاثون وهو المضيف كان عادلا رحيما على عبيده ؛ ولقد صور شيشرون نفسه بحسن معاملته لعبيده ، ولكن هذا استثناء ؛ أما القاعدة فهى أن العبودية انطوت على الظلم والقسوة .

يلاحظ وايتهد أنه بالرغم من أن المجتمع اليونانى والمجتمع الرومانى افترضا نظام العبودية إلا أن فكرة الثورة على هذا النظام بدأت عندهما ، ولكنها ظلت مجرد فكرة ، فيشير إلى أن رجال القانون الرواقيين عدلوا من النظام وأدخلوا عدة إصلاحات قانونية تقوم على احترام حقوق الفرد الأساسية ، ويشير إلى ماركوس أوريليوس ودعوته الخلقية إلى المساواة ، وأن من الخير للمجتمع أن يتمتع كل فرد بكامل حرياته . ولكن المجتمع وبناءه كان أقوى من تلك الأفكار فظلت العبودية . ومع أن تعاليم المسيحية من بعد نادت بالمثل العليا الخلقية إلا أن العصر الوسيط كله كان أداة محافظة أكثر منه أداة تطور وثورة على الأوضاع الاجتماعية القائمة .

وكان القرن الثامن عشر فى نظر وايتهد نقطة التحول فى تأثير الأفكار ، إذ كان عصر المطالبة بحقوق الإنسان ، « هذا العصر الفرنسى العظيم » صنع للعالم ما لم تصنعه أجيال سابقة . لا شك أن كان لهذا العصر مقدمات هى الأفكار الثورية التى بدأت فى إنجلترا فى القرن السابع عشر على أيدى بيكون ولوك . ولكن الإنجليز كانوا يمهدون للثورة ، والفرنسيين يقودونها . ولن ينسى التاريخ جهود فولتير وروسو بين أولئك الذين صنعت أفكارهم للإنسانية فى نصف قرن ما لم يصنعه مفكرو آلاف من السنين مضت . وإذ بنا فى القرن التاسع عشر نجد القانون الإنجليزى يحرم العبودية وبيع العبيد فى ١٨٠٨ ويحرم شراءهم ويدعو إلى

تحريرهم فى كل المستعمرات البريطانية فى ١٨٣٣ . وتغير تصورنا للبناء الاجتماعى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فأصبحت المساواة والحرية لكل فرد هى المقدمة الأساسية ، لا أن العبودية شرط لقيام الجماعة المتحضرة .

ولقصة تطور فكرة الدعوة إلى المساواة بقية يرجئها وايتهد قليلا ليجيب عن سؤال هام هو : لم قضت الإنسانية هذه الآلاف من السنين لتنتقل من فكرة العبودية إلى فكرة المساواة ؟ لم هذا البطء الشديد فى تحول الفكرة إلى واقع ؟ يضع الفيلسوف المشكلة بطريقة أخرى : إذا رأينا مجتمعاً به شر يجب استئصاله ، فهل نستأصل النظام الاجتماعى كله ونعيد بناء المجتمع على أساس جديد ؟ أو أن نبقى النظام كما هو ونحاول أن نضع قاعدة جديدة لنقضى على الشر الذى به ؟ يجد وايتهد فى كلا الطريقين شراً : من الصعب أن تزيل حضارة ونظاماً اجتماعياً دام ألف سنة أو تزيد ؛ حتى إذا كان ذلك ممكناً فسوف يكون ضرره أكثر من نفعه : تصور القضاء على حضارة اليونان من أساسها وبدء الرومان بلا ميراث سابق ، فما كان للإنسانية أن ترى إمبراطورية رومانية وحضارة رومانية . تصور أن هذه الحضارة الرومانية اندثرت من الوجود بحيث لم يبق من تراثها شىء ، فما كان يمكن أن تقوم حضارة أوروبية على الاطلاق . ومن جهة أخرى إذا أبقيت كل شىء على حالته وحاولت أن تتصور قاعدة لتخلص مجتمعاً من الشر الذى به فلست على ثقة من أن القاعدة ستأتى بثمارها المرجوة قبل أن نحاولها فى الواقع الفعلى .

يرى وايتهد أن الإصلاح لا يتم بالقضاء على حضارة قديمة لإقامة حضارة جديدة كما أن الإصلاح لا يتم بمجرد إلقاء أفكار دون أن تدخل حيز التطبيق . ابق الحضارة القديمة على حالها ، وانشر أفكارك التى تظن أن المجتمع سيكون بها أسعد حالا ، واترك أفكارك هذه لتوضع موضع الاختبار فقد تسود وقد تموت . هذه التجارب الفكرية فى المحاولة والخطأ هى سر البطء فى تأثير الأفكار لتصبح أمراً واقعاً .

الحضارة والتعقيد

لم تكن مجهودات الإنجليز والفرنسيين التى أشرنا إليها من قبل فى القرنين السابع عشر والثامن عشر وما تبعها من تشريعات قانونية فى القرن التالى هى كل التراث الحضارى للقضاء على العبودية ولإعلان حق الإنسان فى الحرية والمساواة ، بل قد أشرقت فى تلك القرون الثلاثة نفسها حركات أخرى أدت إلى نتائج لها خطورتها فى تطوير الفرد والجماعة ، ولم يكن تحقيق المساواة والقضاء على العبودية إلا نتيجة واحدة ، وحدثت نتائج أخرى لم تكن متوقعة . يشير وايتهد هنا إلى حركة الانقلاب الصناعى التى أصبح إلغاء الرق معها نتيجة حتمية ، ويشير إلى أفكار دارون عن التطور التى انطوت على أن مساواة الإنسان بأخيه الإنسان ليست أقنوماً يجب تقديسه وإنما يجب أن نضيف إليه أن البقاء للأصلح وللأقوى وأن ليس للضعيف والعاجز أن تمد له أسباب البقاء . لم يعد حق الإخاء والمساواة بين الناس بمنعزل عن حق الفرد القوى فى الحياة وأن مآل الضعيف إلى انقراض . يشير وايتهد كذلك إلى حركات فكرية كان لها أفعل الأثر فى توجيه الحضارة ، كان بعضها نتيجة للانقلاب الصناعى وبعضها الآخر معاصراً له .

جاءت الثورة الصناعية فى إنجلترا فى القرن الثامن عشر ، فازدهرت الصناعة الآلية ، وفتحت آفاقاً جديدة للأيدى العاملة ، وارتفع شأن العامل فى نظر الدولة ثم فى نظر نفسه من بعد ؛ وأصبح العامل قوة بشرية لا يستهان بها فطالب بحقوقه وحرياته كاملة . ولكن الصناعة تزدهر حين تعم الحرية الاقتصادية والمنافسة ؛ غير أن شيوع الحرية الاقتصادية والمنافسة أدى إلى خلق طبقة قليلة العدد معها رأس المال ، وطبقة الأغلبية

العاملة وهى ذليلة مغلوبة على أمرها وبدأت تظهر العبودية فى مظهر جديد — عبودية صاحب العمل للعامل ، فعم البؤس بين العمال ونشأت مشكلات اجتماعية وخلقية . وانتقلت الحركة الصناعية بمشكلاتها من إنجلترا إلى ألمانيا ومن ثم مهد ذلك الانتقال إلى نشوء فكر ماركس وظهور الفكر الاشتراكى لمحاربة النظام الرأسمالى . أما المشكلات الخلقية التى انطوت على استهتار الفرد بالقيم التقليدية واهمال التعاليم المسيحية فقد أثارت رجال الدين فجهزوا أنفسهم بكل ما لديهم من قوة لمواجهة الفساد الخلقى والعودة بالناس إلى الأخلاق الأفلاطونية والمسيحية ، ولكن تعاليم هيوم كانت لهم بالمرصاد . لقد علم هذا الفيلسوف القرن الثامن عشر وما تلاه أن تصورات أفلاطون فى النفس والروح والفضائل تصورات جوفاء لا دلالة لها وأن الأخلاق لا يمكن أن تنعزل عن انفعالات الإنسان ورغباته وأمانيه . وجاء أوجست كونت ليكمل الجولة حين دعا إلى أن عهد الأساطير والميتافيزيقا قد ذهب وولى وأن عصرنا عصر علم وصناعة وعصر عبادة الإنسانية .

باب فلسفة العلوم

العلم القديم

يهتم وايتهد فى هذا الباب بعرض سريع لأهم النظريات العلمية منذ عهد الإغريق إلى يوم كتب كتابه (١٩٣٣) وتطورها على مر العصور ، وبيان ما أحدثه ذلك التطور من تغير فى نظرتنا إلى الأشياء من حولنا وإلى الكون بالاجمال . اختار وايتهد النظرية الذرية وقانون سقوط الأجسام نموذجين للأفكار التى أخذت وقتاً طويلا تتطور فيه لتطور نظرتنا إلى العالم .

يرى المؤلف أن النظرية الذرية من أهم ما اتسمت به الكوزمولوجيا اليونانية القديمة ؛ يقول أن قد أشار إليها ديموقريطس ، وجعلها أبيقور مذهباً منظما ، وشرحها لوكريتيوس شرحاً وافياً فى صورة شعرية فى كتابه « طبيعة الأشياء » Rerum Natura . ولم يذكر وايتهد كلمة واحدة عن النظرية الذرية عند ديموقريطس وذكر عبارة قصيرة عن أبيقور ، وخص لوكريتيوس بتلخيص ما قال عن النظرية فى كتابه . ولم يكن وايتهد فى ذلك منصفاً فى التاريخ لأن ديموقريطس لم يشر فقط إلى النظرية الذرية وإنما كان أول مصادرنا عنها ، وفصل فى النظرية تفصيلا . فمن الانصاف أن نذكر كلمة عن ديموقريطس ليكون استقراؤنا للنظريات العلمية عبر العصور أدق وأوفى .

خلاصة رأى ديموقريطس أن كل جسم مؤلف من ذرات غير منقسمة ، وعددها لا متناه ، وبين الذرات يوجد خلاء ، ولكن لا تحوى الذرة خلاء ؛ الذرات لا تفنى ولا تستحدث ، وكانت ولا تزال وسوف تظل فى حركة دائمة ؛ وتختلف الذرات فيما بينها باختلاف أشكالها وأحجامها ، ولا ثقل للذرة ؛ لم يبحث ديموقريطس مثلما بحث أرسطو من بعد فى الحركة الأولى للذرات وعلتها إذ يقول ربما تمت تلك الحركة الأولى صدفة ؛ وفى ذلك يتفق ديموقريطس مع النظرية الحركية الحديثة للغازات Modern Kinetic theory of gases ؛ ولكن بعد الحركة الأولى — كيفما كان مصدرها — تتحرك الذرات حسب قوانين ثابتة ، وتخضع تلك الحركات لضرورة حتمية ؛ ومعنى الضرورة هنا أن كل شىء يحدث وفق قانون وأن لا شىء يحدث اتفاقاً . ومن ثم لم يدخل ديموقريطس أى تفسير غائى فى حركات الذرات . وبفعل حركة الذرات يتحد بعضها ببعض فتتألف مجموعات فتؤلف الأجسام .

وليس صحيحاً ما قال وايتهد عن أبيقور أنه هو الذى جعل النظرية الديموقريطية مذهباً منظما . لم يكن أبيقور أصيلا فى النظرية الذرية لسببين : أولهما أن أقواله مستمد أغلبها من ديموقريطس ، وثانيهما أن أبيقور كان مهتما قبل كل شىء بالأخلاق واهتمامه بالطبيعة وتفسير

الظواهر اهتمام ثانوى ؛ كان يهتم بعلم الطبيعة بقدر ما كان يثبت أن العالم الطبيعى لا يخضع لسلطة الآلهة ؛ ومن أقواله إنه لا قيمة لتفضيل تفسير علمى على آخر ، ولا ضرورة لتحديد التفسير الصادق لنبذ التفسيرات الخاطئة : أى تفسير مقبول طالما يستبعد تدخل الآلهة . وحين تحدث ابيقور عن النظرية الذرية اختلف عن أستاذه فى أن للذرة ثقلا وأن حركات الذرات تتم صدفة ولا ضرورة أو خضوعاً لقانون .

يخص وايتهد لوكريتيوس بفقرة يذكر فيها رأيه فى النظرية الذرية . يقول عن لوكريتيوس إن العالم عنده مؤلف من جزيئات متناهية فى الصغر ولا تنقسم ولا نهاية لعددها ، تسبح فى المكان وفى سبحها ذاك تميل عن حركتها فى خط مستقيم فيمتزج ، جزئ بآخر ، وقد لا يحدث ذلك الميل أو الانحراف فتتباعد الجزيئات ثم تعود فتلتقى مرة وتتباعد مرة ، ثم تلتقى مرة ثانية ومرات ، وبهذا الالتقاء والتنافر تتألف الأجسام . ولا بأس من ملاحظة أن لوكريتيوس كان من أتباع أبيقور وما فعله فى نظريته الذرية هو عرض لما قاله أبيقور فى صورة أدبية رائعة .

وبعد النظرية الذرية يأتى دور قانون سقوط الأجسام فى علم الطبيعة القديم كما يرى وايتهد . يرى أننا نجد عند أرسطو أقدم صورة لهذا القانون . كان يعتقد أرسطو أن للأجسام ميلا طبيعياً للبحث عن مركز الأرض . لقد صنف أرسطو الأشياء إلى أربعة : هنالك أجسام ثقيلة لها خاصة السقوط إلى أسفل ، وهنالك أشياء أخرى كاللهب من طبيعتها الصعود إلى أعلا رغم انها على سطح الأرض وحين تتحرك إلى أعلا إنما تبحث عن مكانها الطبيعى وهو السماء ، وهنالك النجوم والكواكب فى السماء تتحرك وفق قوانين خاصة بها ، وهنالك أخيراً الأرض وهى مركز الكون وبالقياس إليها يمكن تحديد حركات كل الأصناف الأخرى من الأشياء . هذا ما يرويه وايتهد عن أرسطو ، ولكن لم يذكر عنه أهم نقطة فى تصوره لسقوط الأجسام وهى أن الجسم الثقيل يسقط على الأرض فى وقت أسرع من الجسم الأقل ثقلا فى سقوطه ، ولعل أرسطو وصل إلى تصوره ذاك من ملاحظات حسية ساذجة فمثلا إذا قذفت جسما ا وهو أخف وزناً من جسم آخر ب من مكان واحد فان ا سيكون أقل مقاومة للهواء من ب وإذن سيسقط ا بعد ب . وظل الناس يعتقدون فى صدق هذه النظرية وغيرها من نظريات أرسطو قرابة ألفى عام ، وكانت تنتظر الإنسانية جاليليو ليثبت خطأ أرسطو ويزلزله عن عرشه . لم يشر وايتهد إلى جاليليو وهو يتتبع قانون سقوط الأجسام فى تطوره .

لقد أبان جاليليو أن خطأ نظرية أرسطو يرجع إلى اعتماده على التصورات الكيفية فقط فى صياغة نظريته ، والنظرية الصحيحة فى سقوط الأجسام تقوم على إدخال تصورات السرعة وتحديدها تحديداً كمياً . أبان جاليليو أن نظرية أرسطو ليست النظرية الصحيحة . الحق إنه إذا أسقطنا حجرين مختلفى الثقل من مكان مرتفع واحد فإنهما سيسقطان فى نفس الوقت تقريباً ؛ ولم يكتف جاليليو بذلك بل أراد أن يحدد سرعة سقوط الأجسام على الأرض إذ أثبت أن سرعة الجسم الساقط تتناسب تناسباً طردياً مع الزمن الذى يقطعه فى سقوطه .

نيوتن والتصورات الحديثة :

بعد إشارة وايتهد إلى بعض أفكار الفلاسفة الأقدمين فى علم الطبيعة ، ينتقل إلى الإشارة إلى نيوتن ومقارنة نظرياته العلمية بعلماء الطبيعة فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى . وهو فى هذه الإشارة لم يحاول أن يربط أفكار القدماء فى النظرية الذرية وقانون سقوط الأجسام بأفكار نيوتن فى النظرية الذرية ونظرية الجاذبية ثم ينتقل إلى بيان تطور علم الطبيعة فى هاتين النظريتين بعد نيوتن والإشارة مثلا إلى أبحاث علماء القرن التاسع عشر فى الذرة وأبحاث النظرية النسبية فى

الجاذبية . لم يحاول وايتهد شيئاً من هذا ؛ وإنما جعل موضوع حديثه عن نيوتن وتطور نظرياته تصوره للجسم المادى وللعلاقات بين الأجسام .

يذكر وايتهد نيوتن أولا بالخير ، ثم يوجه إليه بعد ذلك النقد اللاذع . يذكر أولاً أن نيوتن قد أدى للإنسانية خدمات لا تقدر ولا يستطيع أحد أن يتجاهلها يقول عنه إنه ألف بين أفكار أفلاطون وأرسطو وأبيقور فى إطار تصورى منسق متسق يفسر به عدداً هائلا من الوقائع الملاحظة (وكان ينبغى على وايتهد أن يضيف أسماء أعلام كثيرة عدا من ذكر ممن أثروا فى مذهب نيوتن مثل كبلر وجاليليو وديكارت وبارو Barrow وجلبرت وبويل) . لكن وايتهد يذكر عن نيوتن بعد ذلك أن فلسفته الطبيعية ونظرياته عن العالم والكون قد انهارت . وقصة انهياره قصة طويلة : بدأ أتباعه المتحمسون لنظرياته يواصلون أبحاثهم فجاءت تلك الأبحاث الواحد تلو الآخر تؤلف نسقاً من الأفكار والنظريات تتناقض ونظريات أستاذهم . بدأ التحول عن نيوتن بالنظرية الموجبة للضوء وانتهت بالنظرية الموجبة للمادة — لعل وايتهد يقصد بالنظرية الموجبة للضوء نظرية هويجنز المعاصر لنيوتن فى طبيعة الضوء والمعارض لنظرية نيوتن الذى كان يرى الطبيعة الجسيمية للضرر ، ولعله يقصد بالنظرية الموجبة للمادة الإشارة إلى نظرية اينشتين فى أن المادة ينظر إليها على أنها طاقة لا كتلة فقط وفى أن المكان والزمان أصبحا يكونان المتصل الواحد بدلا من التصور المطلق للمكان والزمان وتصور أن الواحد مستقل عن الآخر .

كان يتصور نيوتن العالم مؤلفاً من أجسام . خذ مثلا قالباً من الحجر أمامك ؛ يمكننا أن نصفه وصفاً كاملا دون شارة إلى أى جسم مادى آخر بالقرب منه أو بميداً عنه ؛ يمكن وصفه كما لو كان هو الجسم الوحيد الذى يحتل المكان فى الكون .وكل جسم يمكن أن تسند إليه مجموعة من خصائص وصفات أساسية تؤلف طبيعته ، وهذه تظل هى هى دون تغير رغم ما يطرأ على الجسم فى تغير فى علاقاته المكانية مع الأجسام الأخرى ورغم الحوادث التى قد تحدث له مثل اكتسابه صفات جديدة أو فقده لأخرى كانت فيه نتيجة لجواره من أجسام أخرى أو بعده عنها . يتصور نيوتن الجسم المادى باختصار على أنه « جوهر » بالمعنى الفلسفى . وللجوهر المادى معان مختلفة باختلاف الفلاسفة القائلين به ، بل معان مختلفة عند الفيلسوف الواحد ، ولكن ما كان يقصده نيوتن من الجوهر المادى معنيان : أولهما ما وجوده مستقل عن وجود أى شىء آخر أى ما لا يعتمد فى وجوده على وجود أى شىء آخر ، وثانيهما ما كان موضوعاً ثابتاً للتغير أى رغم ما يطرأ عليه من حوادث وما تحل به من اكتساب خصائص وفقد أخرى فان الجسم هو هو من حيث هو مؤلف من مجموعة صفات أساسية — هو ثابت له ديمومته فى الزمن رغم التغيرات . إن عرض نيوتن بهذه الصورة عرض لا غبار عليه وإن كان تبسيطاً لموقفه مبالغاً فى التبسيط . الواقع أن نيوتن لم يكن يعول فى بيان موقفه من الجسم المادى على الأحجار أو المناضد أو المقاعد وما إلى ذلك، وإنما كان يعول على تحليله الجزئ Particle . كان يعتقد أن الجزيئات يمكن وصفها وصفاً دقيقاً عن طريق صيغ رياضية عالية المستوى ، والوصف يتناول حركاتها الدائبة وتغير علاقاتها المكانية فى أزمنة متلاحقة . والشىء الأساسى عند هو حركة الجزىء فى اللحظة اللازمنية durationless instant كل حركة تحدث فى زمن ولكن الزمن الذى تحدث فيه حركة الجزىء ليست وقتاً قصيراً جداً كما يحدث عند التقاط صورة فوتوغرافية وإنما اللحظة الرياضية التى تتم فى لا زمن على الإطلاق . افرض أن أمامنا جزيئاً لم تحدث له حادثة فى لحظة ما فان نيوتن يرى أن ذلك الجزىء قائم فى مكانه ، وإذا أخذنا اللحظة بالمعنى المألوف أى تلك الفقرة القصيرة جداً من الزمن فإنه

يتصور أن الجزىء فى حركته وتغيره يظل هو هو من حيث يتألف من مجموع خصائصه الأساسية مثل الكتلة وعدم القابلية للنفاذ والقصور الذاتى والجاذبية . وتصور نيوتن للجسم المادى ينطوى على نظرية أخرى فى العلاقات هى أن العلاقات بين الجزيئات « علاقات خارجية » أى أن ما يحدث بين الجزيئات من علاقات لا يؤثر على طبيعة الأشياء المتعلقة . وأبسط مثل على ذلك هو واقعة وضع كتاب على منضدة فان العلاقة المكانية هنا لا تغير من الصفات الأساسية لكلا الجسمين أو خذ علاقتى الجذب والتنافر أو انتقال الشحنات الكهربية لا يغير من طبيعة الأجسام موضوع تلك الأحداث . هذا التصور النيوتونى للجسم المادى خطأ فى نظر وايتهد وفى نظر علم الطبيعة كما تطور فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى ، ويسمى وايتهد ذلك الخطأ بأغلوطة الوضع البسيط Fallacy of simple location كما ينقد وايتهد نيوتن فى نظرية العلاقات الخارجية .

أقام وايتهد نقده لهذا التصور النيوتونى للجسم على أساس ما توصلت إليه نظريات المغنطيسية الكهربية والنسبية والكوانتم فى تصور المادة والمكان . إن العالم — على ما ترى هذه النظريات بالاجمال وما يعتقد به وايتهد — مؤلف من أشياء طبيعية نسميها النجوم والكواكب والأجسام المادية ، وهى تتركب جميعاً من ألكترونات وبروتونات وذرات ضوئية تشع طاقة حسب ذبذبات معينة quanta of energy — وهذه جميعاً صور متباينة يتخذها المتصل المكانى الزمانى Space-time الذى يملأ الكـــون . والذرة ما هى إلا كم من الطاقة أو كم من الطاقة والكتلة معاً وتتغير طبيعتها بالحركة لأنها فى حركتها إنما تكتسب طاقة جديدة أو تفقد طاقة كانت بها . ومن ثم لا يمكن وصف الذرة وصفاً دقيقاً فى لحظة حاضرة لأنها فى طبيعتها طاقة كما قلنا ، والطاقة منتشرة فى المتصل المكانى الزمانى تحتل حيناً مركزاً مكانياً محدداً لا تلبث أن تنتقل إلى مركز آخر ويحل محلها قدر آخر من الطاقة ، وقد تكتسب فى حركتها كمية من الطاقة أكبر مما كان لديها وقد تفقد ما بها فتنعدم ليحل محلها كم آخر وهكذا . يترتب على ذلك أنه لكى نصف جسما وصفاً دقيقاً لا نستطيع أن نعزله عن ماضيه ومستقبله . وما كان يستطيع نيوتن أن يتصور هذا الموقف وهو متمسك بوصف الجزئ فى اللحظة اللازمنية ، لأن تلك اللحظة لا تفتح مجالا لتصورات السرعة وتغيرها وكميتها والطاقة الحركية ، وبمعنى آخر إن تصور اللحظة اللازمنية فى نظر وايتهد تصور متناقض لأن من المستحيل أن تحدد سرعة حركة طاقة أو اشعاع دون إشارة إلى ماضيها ومستقبلها . وكما يهاجم وايتهد تصور نيوتن للجواهر المادية يهاجمه ويهاجم الفلاسفة القائلين بالعلاقات الخارجية ، وهى نتيجة حتمية لتصوره للعالم والكون بالاجمال وهى أن الكون يتألف من ذرات وما يحدث لها من حوادث ، وأنه لا تمييز فى الحوادث بين الماضى والحاضر والمستقبل تمييزاً حاسما ، وأن الكون يمكن تصوره تصورنا للكائن الحى ، وأن طبيعة كل عضو تتغير بحكم الوظيفة التى تقوم بها لتتسق مع وظائف الأعضاء الأخرى . يقول وايتهد إذن بالعلاقات الداخلية بين الأشياء أى أن العلاقة بين شيئين تغير من طبيعة كليهما . . وأن التمييز بين الأشياء مستحيل . حقاً لا ينكر وايتهد الفردية والاستقلال فى الأجسام الجزيئة ولكن هذا الاستقلال والاختلاف يفترض الوحدة — الوحدة العضوية ، والتمييز ذاته تعبير عن وحدة .

هدف وايتهد من هذه الجولة فى تاريخ أفكار العلماء فى العالم والكون هو أن الأفكار العلمية تتطور بتقدم الأبحاث والكشوف الجديدة ، وبهذا التطور تتغير نظرتنا إلى الأشياء من حولنا ويتعدل فهمنا لها . ولا شك أن لذلك التطور الفكرى تأثيره فى الحضارة الإنسانية التى هى فى أساسها حضارة علمية . ولا حاجة بنا إلى

الإشارة إلى أن للتطور العلمى الحديث تأثيره الهائل فى حضارتنا فى أوقات السلم واستخدامه فى أوقات الحرب .

الباب الفلسفى

وجود الأنا :

يوجز وايتهد فى هذا الباب مذهبه الفلسفى ، وهو يوجزه هنا حيث فصله فى كتب سابقة أشرنا إليها فى أول المقال . وسنقتصر فى هذه الفقرة على إيجاز الفصل الأول من هذا الباب وهو خاص بموقفه من الكوجتو أو مشكلة وعى الإنسان بوجود ذاته .

قلنا إن وايتهد عالم وفيلسوف ، والفلسفة عنده تشمل فلسفة العلم أو ما سماها الكوزمولوجيا ، والميتافيزيقا أو ما سماها الفلسفة التأملية Speculative Philosophy . والميتافيزيقا يعرفها بانها محاولة بناء نسق من الأفكار يأخذ بعضها برقاب بعض وبينها صلات منطقية ضرورية يمكننا بواسطتها أن نجد تفسيراً لكل عنصر من عناصر خبرتنا الإنسانية . وتصور الخبرة الإنسانية عنده يتضمن تصورنا للعقل الإنسانى وصلته بالعالم الذى يدركه ويعرفه ذلك العقل ؛ وما دامت الميتافيزيقا تهتم بتصورنا للعقل الإنسانى فإنها تتضمن مجموعة الأبحاث الفلسفية المسماة بنظرية المعرفة . ووايتهد فى موقفه من مشكلة المعرفة يحلل العلاقة بين الذات والموضوع . يقصد العلاقة بين الذات المدركة أو العارفة والأشياء التى يمكن أن تؤلف موضوع معرفة تلك الذات .

يبدأ وايتهد تحليله المعرفى بتحليل عملية الإدراك الحسى . يعلن أنه يقبل « المبدأ التجريبى فى صورته العامة » ، وأن كل معرفة يجب أن تقوم على « الملاحظة الحدسية المباشرة » — يقصد أن المصدر الأساسى للمعرفة الإنسانية هو الخبرة الحسية ، وأن كل معرفة يجب أن تؤسس على الانطباعات الحسية أو الأفكار ، تلك التى تتكون نتيجة اتصالنا بالعالم الخارجى عن طريق الحواس الخمسة ، ومن تلك الانطباعات والأفكار يتألف ما نسميه بالإدراك الحسى . وتسمى موضوعات الإدراك مدركات حسية ، ويجرى وايتهد مع تقليد الفلاسفة الإنجليز فى مطلع القرن الحالى فى تسمية تلك المدركات « بالمعطيات الحسية » Sense-data . ولكنه يختلف عنهم فى أنه لا يثير المشكلة التى يثيرونها وهى صلة المعطيات الحسية بالأشياء المادية الخارجية : لا يشير إليها ويتجاهلها ، لعل مرد تجاهله أنه ينكر التفرقة بين الظاهر والحقيقة ويرى أن المدرك هو الواقع والحقيقة ، وتقترح لك كتاباته — وإن لم يصرح — أن المعطيات الحسية هى الأشياء المادية ؛ لكنه يقول فى مواضع متفرقة من الكتاب أن الانطباعات الحسية لا يستقبلها العقل فقط وإنما يضيف إليها مقولات من عنده — وبذا يذكرنا هذا الموقف بموقف كنط وإن كانت المقولات عند الفيلسوفين مختلفة . يقول وايتهد فى هذا الفصل أن العقل ليس مجرد مستقبل للانطباعات وإنما يضيف إليها من عنده أشياء هدفها تفسير تلك المعطيات . ويحتاج وايتهد إلى تفسير المعطيات لأنها معطيات الواقع الحاضر ولا صلة لها فى ذاتها بماض أو مستقبل . وتفسيرها هو ربطها بتاريخها من الماضى إلى الحاضر والمستقبل . ويتضمن تفسيرنا للمعطيات عنصر الانفعال والغرض — ويقصد بالانفعال هنا اهتمامنا بشىء معين فى مجال الإدراك دون غيره ، ورغبة إليه ، أو إقبال على معرفته ، أو عزوف عنه ، أو شعور بالرضا لمعرفته ، أو قلق واستغراب منه وما إلى ذلك . ويمكن ربط فكرة التفسير هذه بفكرة المقولات التى سبق أن أشرنا إليها بقولنا إن مقولة ساسية من مقولات الفكر عند وايتهد فكرة الاتصال والترابط الوثيق interrelatedness الفكر الإنسانى متصل مترابط المضمون ، وعالم الطبيعة عالم متصل مترابط الأجزاء .

ينتقل وايتهد إلى القول بأنه غير مقتنع بالإدراك الحسى وحده كمصدر للمعرفة ، والسبب فى عدم رضاه فرض ميتافيزيقى هو أن بين أجزاء العالم اتصالا وترابطاً وثيقاً ، وبين الأفكار اتصال وترابط وثيق ، وبين عالمى الأشياء والفكر نفس الاتصال . يعتقد وايتهد أن المعرفة تفترض وجود موضوعاتها مستقلة عن العقل العارف وسابقة على عملية الإدراك والمعرفة ولكنه يعتقد فى نفس الوقت أن الخبرة الإنسانية لا يمكن تصورهـا إلا إذا كانت الصلة بين الذات العـارفة وموضوعات المعرفة صلة تضايف أى لا يمكن فهم أحدهما دون وجود الآخر . والخبرة الإنسانية تتطلب تحديد موقفنا من تلك الذات . والإدراك الحسى وحده لا يساعدنا على فهم تلك الذات .

هنالك إذن إدراك غير حسى non-sensuous perception وهو ما يرى وايتهـد أنه يوصله إلى نظرية عن الكوجتو أو الوعى بالذات أو ما درج الفلاسفة منذ أيام جون لوك على تسميته « بالذاتية الشخصية » Personal Identity . يقول إن أفضل مثل على الإدراك غير الحسى هو معرفتنا بالماضى المباشر . لا يشير وايتهد إلى ذكرياتنا عن حوادث حدثت لنا فى يوم مضى أو ساعة أو دقيقة مضت ، وإنما يقصد بالماضى المباشر هنا إلى ذلك الجزء من الماضى الذى يمتد بين عشر ثانية ونصف ثانية مثلا : هذا الخط الضيق من الماضى مضى حقاً ، ولكن لا زال فى وعينا وشعورنا — هذا الإدراك ينطوى على شعورى بوجودى ، هذا الوعى بذلك الجزء من الماضى أساس وجودى الحاضر — ويقصد وايتهد بالشعور بالذات ، الاتصال المباشر فى الوجدان الذى يثبت وجود الذات : إن الشعور الذى أعانيه فى الوقت الحاضر عن خبرة ماضية هو الآن معطى ولكنى لا أستطيع أن أعزله عن الماضى المباشر . إن الشخص الغاضب فى لحظة سبقت يعانى انفعال الغضب انفعالا غير حسى بمعنى أنه لا يدرك شيئاً بالحواس الخمسة — يعانيها بطريقة تجعل الخبرة الماضية معطى حاضراً . ويشير وايتهد هنا إلى هيوم فى تمييزه الانطباعات عن الأفكار بدرجة الوضوح والقوة والحيوية . إنك لن تستطيع أن تفصل الماضى المباشر عن الواقع الحاضر لأن كليهما يتصف بدرجة عالية والقوة والوضوح والحيوية . اتصال الماضى المباشر بالواقع الحاضر بهذه الطريقة يثبت الشعور بالأنا .

ويقرن وايتهد اتصال النفس بمبدأ الاتصال فى الطبيعة ، ويقصد به النظر إلى العالم مؤلفاً من ألكترونات وبروتونات وفوتونات وحركات موجية واشعاعات ، وكلها صور من الطاقة تسبح عبر المتصل المكانى الزمانى وليس العالم مؤلفاً من أشياء مستقل الواحد منها عن الآخر ؛ وكم معين من الطاقة يبدو فى لحظة حاضرة إنما ينتقل إلى المتصل المكانى الزمانى من طاقات ماضية سابحة وهو متخذ طريقه إلى المتصل فى المستقبل . ومجرى الطاقة أحد الفصول الممتازة فى نظرية الديناميكا الكهربية التى أرشدنا إليها كلارك ماكسويل .

يصادر وايتهد على أن الاتصال الموجود فى العالم الطبيعى ما هو إلا تجريد للاتصال الموجود فى الذات المدركة ومن كليهما يتألف اتصال الخبرة الإنسانية : وينتهى الفصل باشارة خاطفة إلى الجانب الفسيولوجى والجانب العقلى من الإدراك الحسى وإشارة خاطفة إلى ثنائية البدن والعقل ، فيقول إنه ما من شك فى أن للإدراك الحسى جانباً فسيولوجياً يتمثل فى جهاز المخ وصلاته بأعضاء الحس ولكن العمليات العقلية لا يمكن تفسيرها بالأساس الفسيولوجى فحسب ويقرر وايتهد أن ليس لدينا امكانيات الوصول إلى نظرية من الإدراك الحسى تحدد لنا كيف ينتقل الانطباع من المخ إلى معطى حسى . وفى إشارته إلى الثنائية يفضل استخدام تعبير « ثنائية البدن والشخص » على « ثنائية البدن والعقل » فيقول إنه لا تمييز بين البدن والشخص وأساس عدم التمييز فى نظره هو أن البدن جزء من العالم الطبيعى الذى

نتصوره مؤلفاً من حوادث مترابطة ترابطاً وثيقاً ومتصلة ، وكذا الأنا كما قلنا . فكلمة « شخص » إذن تدل على كيان واحد لا على عنصرين متميزين .

الباب الرابع

الحضارة :

نجتزئ من الباب الرابع أهم فصوله وعنوانه « الحضارة » . يرى وايتهد أنه يجب أن يتوفر عنصران أساسيان لكى تنتقل الأفراد والجماعات من حالة بدائية إلى حالة متحضرة ، أو من مستوى حضارى إلى مستوى أعلى منه ، هما القدرة على التطور فى مقابل الثبات — ثبات النماذج الفكرية وثبات الأنماط السلوكية السائدة ، والثبات منطو على الجمود ؛ والاستعداد للمغامرة أو المخاطرة فى الفكر والسلوك . يتحدث المؤلف عن هذين العنصرين متتبعاً الخطوات التالية .

يصادر وايتهد على أن شعوب أوروبا شعوب متحضرة منذ ستة قرون مضت على الأقل ، ولكن ترجع أصول تلك الحضـــارة إلى ثلاث حضارات كبرى سابقة هى حضارة الشرق الأدنى والحضارات اليونانية والرومانية . لقد نظرت أوروبا فى بداية حضارتها الحديثة إلى تلك الحضارات نظرتها إلى مثال عليها أن تحاكيه ، وخاصة حضارة المدنية الأثينية فى أوج عزها . ولكن أوروبا الآن لم تعد تحاكى مدنية أثينا فقد اكتسبت عبر التاريخ معارف جديدة فى مجالات العلم والقانون والطبقات الاجتماعية والفكر الفلسفى ، كما أن نهضتها الصناعية رفعت أوروبا عن مستوى القدماء درجات عظمى . ويشير وايتهد كذلك إلى أننا لو ظللنا نحاكى الحضارة اليونانية القديمة لكان مجتمعنا راكداً ساكناً متأخراً : لا يريد القول بأن اليونان كانوا متأخرين فى مستوى حضارتهم ؛ بل على العكس فقد كانوا يؤلفون مجتمعاً حياً دافق النشاط غزير الإنتاج ، إذ أشرقت عندهم التأملات والمخاطرات وحب التجديد ، ولكن يشير وايتهد بعدم محاكاتنا اليوم لأثينا إلى أن الحضارة القديمة كانت تتسم بسمات رئيسية تقليدنا لها يدعونا إلى التأخر ، وتتلخص تلك السمات فى أن كان لهم مثل أعلى يريدون بلوغه ويرون فيه كمال الفرد والجماعة ، والمثل الأعلى يتضمن كمالا ، ويتعارض بلوغه مع التطور والحركة . ويرجع تلك السمة إلى أصولها الفكرية ونخص بالذكر نظرية المثل الأفلاطونية ومنطق أرسطو . كان أفلاطون يعلم أنه يجب علينا أن نتأمل المثال لتقليده قدر الطاقة وتقليدنا له بلوغ الكمال ، وليس بعد بلوغ الكمال سعى جديد ، ومنطق أرسطو — فيما يرى وايتهد — أقيم على تصوره للجواهر الأولى وهذه الجواهر كائنات ثابتة قد تتلقى كيفيات مختلفة وقد ترتد تلك الكيفية عن تلك الكائنات لتحل فيها كيفيات جديدة ولكن الجواهر مع ذلك ثابتة لا تتغير . ويقرن وايتهد جون لوك بأرسطو فى هذا السياق فيقول عن لوك إنه تصور العقل صحيفة بيضاء تتلقى ما يأتى لها من خارج ولا فاعلية له فى الإدراك ، ويقول عن لوك وأرسطو إنهما يتفقان فى تصور أن الجواهر الأولى كائنات ثابتة مستقل بعضها عن بعض لا يدخل أحدها فى تكوين الآخر .

أما ما يراه وايتهد فهو الإقلاع عن فكرة المثال الثابت الذى نحتذيه ، والاقلاع عن تصور مثال للفرد ومثال للسلوك الفاضل ومثال لشكل الدولة وما إلى ذلك . يعتقد وايتهد بالحركة الدائبة التى تصعد دائماً دون توقف عند حد محدود أو خطة مرسومة ، ويعتقد أن الماضى خالد ، إذ قبل أن يصبح ماضياً يبث عناصره فى الحاضر ويغذيه ويخرج الحاضر شيئاً جديداً ولكن به بعض عناصر الماضى الذى انقضى ، وما فعله الماضى فى الحاضر يفعله الحاضر فى المستقبل ، وهكذا إلى غير نهاية . ينطبق هذا التصور الحركى على عالم الطبيعة المادية وعلى الحضارة الإنسانية : لا تستطيع تقييم حضارة لمجتمع

ما فى زمن ما دون أن ترد أصولها إلى ماض سحيق أو قريب ودون أن تربطها بما قد يترتب عليها فى المستقبل القريب أو البعيد ، وكلما نبذنا فكرة المثل الأعلى الذى ينطوى على الجمود والركود وكان الصعود أبداً هو شعارنا ، انتقلنا من مستوى حضارى إلى آخر أعلى منه .

والعنصر الثانى الذى يدفع إلى التحضر هو عنصر المغامرة . الاتجاهات المحافظة أبداً بشير بالتدهور والتأخر ، وحب التقليد دون ميل إلى التجديد رمز البدائية . تبلغ الأمة قمة حضارتها كلما زادت تجاربها الجديدة — تجربة أفكار جديدة تدفع إلى نماذج من السلوك جديدة . ويقصد وايتهد بالمغامرات الفكرية تلك الأفكار التى تسبق الحوادث وتطلب أن تتحقق ، ولا بأس من أن يكون خيالنا واسعاً فى التفكير إن تحقق كله كان خيراً كله ، وإن تحقق جزء منه كنا أمة فى سبيلنا إلى التقدم . قبل أن يبحر كولومبوس إلى أمريكا كان يحلم ببلوغ الشرق الأقصى وبرحلة حول العالم . لم يصل كولومبوس إلى الصين ولكنه اكتشف أمريكا .

نصوص مختارة :

« إن القطاع من تاريخ الإنسانية الذى يركز فيه هذا الكتاب اهتمامه مختص بانتقال الحضارة من الشرق الأدنى إلى غرب أوروبا . وموضوع البحث مقصور على بيان فكرتين أساسيتين أو ثلاث لها فاعليتها ، وقد تكونت الحضارة من تأثير تلك الأفكار . يمكن تتبع تلك الأفكار بايجاز فى عالم الشرق الأدنى القديم حتى اليوم . لا حدود ثابتة لأى حضارة من حيث حدودها المكانية أو الزمانية أو سماتها الرئيسية ؛ وغموض ذلك التحديد يميز الحدود الشرقية لأوروبا كما يميز حدود الشرق الأدنى ذاته تلك الحدود التى تذبذبت بمضى القرون . فقد وصل الشرق الأدنى فى آخر مظهر من مظاهر عظمته إلى المحيط الأطلسى ، وفى مرحلة سابقة من مراحل عظمته — قبل عصر اليونان — شمل الشرق الأدنى وادى النيل وبلاد ما بين النهرين ، وقد توغل فى بحر ايجه ثم غرب البحر الأبيض . تقوم أهمية الشرق الأدنى لدينا فى اعتباره مصدراً لحضارة أوروبا الحديثة » (ص ١٦ — ١٧)[1].

« إن تاريخ الحضارة فى العالم القديم تاريخ تطور داخلى لأربع مناطق كبرى تحيط بآسيا هى الصين والهند والشرق الأدنى وأوروبا ؛ ولا يمكن فهم تاريخ تلك المناطق منعزلة عن دراستنا لاحتكاك بعضها ببعض مثال ذلك أن العصر اليونانى — الرومانى يبين لنا أن المدنية القديمة للشرق الأدنى أدت إلى نشأة الحضارة الأوروبية الحديثة ، كما يبين أن تلك الحضارة الأوروبية انطوت على استقلالها وتميزها من النظام الاجتماعى الذى استمدت حضارتها منه . انهيار الحضارة القديمة مأساة تاريخية ، رمزها سقوط الإمبراطورية الرومانية ، وسبب ذلك السقوط هو أنها ارتدت فى نظامها الاستعمارى إلى مثل شرقية » . (ص ٩٤) .

« لننظر فى تباين وجهات النظر فى الحضارة الكلاسيكية للبحر الأبيض — فى مجال النظرية السياسية — ولنلاحظ الخلاف بين بركليس وكليون ، أفلاطون والإسكندر الأكبر ، ماريوس وسلا ، شيشرون وقيصر ؛ بالرغم من اختلافهم فإنهم متفقون فى فكرة أساسية تعتبر قاعدة لكل نظرياتهم السياسية . كان هنالك (فى الحضارات الهلينية والهلينية المتأخرة وهى ما أطلقنا عليها الحضارة الكلاسيكية) فرض افترضه الجميع وهو أن وجود عدد كبير من العبيد ضرورة لازمة للقيام بالخدمات التى لا تليق بالرجل الثرى الذى بلغ درجة عالية من المدنية . وبمعنى آخر ، لم تكن الجماعة المتحضرة فى ذلك العصر بقادرة على الاعتماد على نفسها ؛ كان يجب أن تدخل قاعدة من البرابرة فى

---

(١) أرقام الصفحات هنا من الطبعة الآتية من كتابنا :
A. N. Whitehead, Adventures of Ideas, published in Pelican Books, 1942, Middlesex.

البناء الاجتماعى لكى تقوم القمة المتحضرة . كان هذا الفرض عاماً فى الحياة العملية وفى تصورات الناس ، لدرجة أننا نظن أنه قائم على سبب وجيه لتكوين المظاهر المبكرة للحياة المتحضرة . أراد المصريون الطوب والأحجار فاسروا اليهود . . . » (ص ٢١) .

« قد أمدنا الفكر اليونانى بكوزمولوجيا منافسة (لكوزمولوجيات الشرق الأدنى) فى صورة النظرية الذرية كما أشار إليها ديموقريطس ، وجعلها أبيقور مذهباً منظماً ، وشرحها لوكريتيوس شرحاً وافياً فى صورة شعرية . العالم — كما يراه لوكريتيوس — سيل لا متناه من الجزيئات الذرية ، سابحة فى المكان ، تميل أو تنحرف ، وتندمج ، وتتباعد فى مسيرها ، ثم تلتقى من جديد . إن الاختلافات الكيفية — كما ترى هذه النظرية — مجرد تعبير إحصائى للنماذج الهندسية لتلك المسيرات المتلاقية ، وهى نتيجة ذلك الانحراف ومعها اختلاف الأشكال فى عدد محدود .

وقد التجأ أفلاطون ولوكريتيوس إلى الهندسة ، إذ لجأ أفلاطون إلى الأشكال الصلبة المنتظمة ، ولوكريتيوس إلى أشكال المسيرات والأشكال اللامعينة للذرات ؛ وقد أكد العلم الحديث اتجاههما العام . ويبدو أنه كان أمراً ضرورياً أن ينظر أبيقور للمكان والحركة نظرية ميتافيزيقية سطحية ، عرضها نيوتن فى « المبادئ » فيما بعد . وقد كان لنظرية أفلاطون فى المكان كما ذكرها فى « طيماوس » عمق ميتافيزيقى ، ومع أن نظريته فى المادة كانت عارية عن أى صورة هندسية ، إلا أن لها صلات بنظرية الخلاء عند لوكريتيوس . ولو كان هذا الأخير قادراً على شرح أعمق لأبيقور لكان وجد أن من الضرورى أن يربط الخلاء بتلك الصور الهندسية التى أنكرها أفلاطون على مادته المجردة وأنكرها كذلك أرسطو على مادته » (ص ١٤٥) .

« . . . وها قد وصلنا إلى عصر العقل وعصر حقوق الإنسان . لقد صنع هذا العصر الفرنسى العظيم فروض العالم المتحضر وتناول التأمل والعلم والقضايا الاجتماعية . ويرجع هذا العصر إلى الفكر الإنجليزى فى القرن السابع عشر الذى تمثل فى فرنسيس بيكون واسحق نيوتن وجون لوك ، كما اكتسب ذلك العصر العظيم قوته من الثورات الإنجليزية . وقد احتفظت الأساليب الإنجليزية دائماً بعزلتها فى جزيرتها ، ولكن الفرنسيين وسعوا الآفاق ووضحوا الأفكار وأشاعوها فى العالم » (ص ٢٩) .

« كان موقف نيوتن أكثر نفعاً فى تبرير المناهج اللازمة للحالة التى كان عليها العلم فى ذلك الوقت (القرن الثامن عشر) والجيل التالى له . لقد اعتقد نيوتن بالصورة الساذجة لنظرنة لوكريتيوس فى الذرات المادية وللتصور الساذج للقانون كأثر للإرادة الآلهية . إن كوزمولوجيا نيوتن سهلة الفهم صعبة التصديق ، وكان يوجد فى الوقائع ما يبرر استمرارها مدة قرنين من الزمن ، ولذا كانت النظرية الصادقة لنفس المدة ، وسوف ينظر إلى نظريته دائماً على أنها نسق من الأفكار واضح متميز ، ولها مجالها الواسع فى التطبيق » (ص ١٥٦) .

« إن الخدمات التى أداها نيوتن بنسقه الطبيعى للإنسانية لا تقدر . لقد ألف بين أفكار مشتقة من أفلاطون وأرسطو وأبيقور فى إطار فكرى منسق متسق يشرح عدداً هائلا من الوقائع الملاحظة ؛ ومن ثم فقد مكن الناس من الوصول إلى سيطرة جديدة على الطبيعة : ما كنا نطيعه فى الماضى ونقف أمامه موقف المتفرج أصبحنا الآن نوجهه . ولكن كوزمولوجيا نيوتن قد انهارت فى نهاية الأمر . وتمتد قصة الانهيار قرنا من الزمن أو تزيد ؛ كان العلماء فى الجزء الأكبر من ذلك الزمن لا يشعرون أن الأفكار التى يقدمونها فكرة بعد فكرة تؤلف نسقاً من الأفكار لا يتسق وأفكار نيوتن ، وهذه ما كانت تسيطر على عقولهم وتشكل طريقتهم فى التعبير . تبدأ القصة بالنظرية الموجبة للضوء

وتنتهى بالنظرية الموجبة للمادة » (ص ١٨٥) :

« إن أسس فهمنا للنظرية الاجتماعية — أى فهمنا للحياة الاجتماعية — هى أن الإبقاء الجامد على فكرة الكمال غير ممكن ، وتمتد جذور هذه البدهية فى طبيعة الأشياء . على الإنسانية أن تختار النهوض أو السقوط . إن الاتجاه المحافظ البحت مضاد لطبيعة الكون . وتستلزم هذه النظرية الأخيرة (العملية الصاعدة لا الثبات الراكد) تبريراً حيث قد أنكرتها الأجيال المتعلمة الآخذة عن الفكر القديم .

وتقوم النظرية على ثلاثة مبادئ ميتافيزيقية ، أحدها أن الماهية الحقيقية لأى موجود واقعى — للوجود التام — هى العملية الصاعدة ؛ ومن ثم يمكن فهم كل موجود واقعى بالقياس إلى صيرورته وفنائه ؛ ليست هنالك نقطة وقوف يصل إليها الوجود وعندها يسكن . . . إن العكس هو الصحيح .

وفكرة الثبات — وهى ما ننكرها هنا — مأخوذة من مصدرين فى الفكر القديم . لقد خدع أفلاطون فى محاوراته المبكرة بجمال الرياضيات فتصور عالماً سامياً من المثل كاملة أبداً لا تغير فيها . . .

ولقد أدخل أرسطو أغلوطة الجمود بتصور آخر أثر على كل الفلسفات التالية . لقد تصور الجواهر الأولى أسساً ثابتة تتلقى صفات وكيفيات . ونجد فى مجال الخبرة الإنسانية صورة جديدة لنفس التصور فى تشبيه جون لوك للعقل بأنه « حجرة فارغة » تستقبل الأفكار التى ترد إليه ؛ ومن ثم لم يتصف الوجود عند لوك بالعملية الصاعدة وإنما هو الاستقبال الراكد للعملية الصاعدة فى عالم الطبيعة . والجوهر الأول عند أرسطو ولوك لن يكون عنصراً يدخل فى تأليف طبيعة جوهر أول آخر . . . ولذلك كان ارتباط الأشياء الواقعية بصورها المختلفة مشكلة لكل الفلاسفة المحدثين — سواء فى الميتافيزيقا أو نظرية المعرفة . ويرجع فساد المنطق الأرسطى — بما به من توجيه الفكر الميتافيزيقى إلى الأسماء والصفات — إلى إهمال حروف الجر وحروف العطف ؛ وقد تضمن هذا الكتاب إنكار هذه النظرية الأرسطية . إن العملية الصاعدة أبداً هى ذاتها الوجود ، ولا تستلزم وجوداً ثابتاً سابقاً ، كذلك العمليات الصاعدة التى استمرت فى الماضى وحل بها الفناء إنما تحمل فى طياتها مصدراً معقداً لكل وجود جديد .